المقام أو السياق بين المفهوم العربي والغربي
ودوره في فهم مقاصد الخطاب القرآني.

أ.موهوب أحمد

جامعة محمد الصديق بن يحي- جيجل

ملخص:

السياق من أهم عناصر الخطاب اللغوي، تناوله علماء البلاغة والأصول تحت ما أسموه (مراعاة المخاطب لمقتضى الحال)، (ولكل مقام مقال)، فالمقام طبقات، يختلف المقال فيه حسب اختلاف هذه المقامات، وما على المتكلم إلا مراعاتها، وإحراز المنفعة، فلا معنى للكلام بدون منفعة.

كما تناوله المحدثين بصورة أوسع، باعتباره الإطار العام للقول الذي يشمل زمان ومكان القول والعلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وكل ما يحيط بهما.

من خلال هذه الثقافات والمرجعيات والمعتقدات، أو زمان ومكان للقول نستطيع فهم مقاصد الخطاب القرآني، لأنه خطاب له علاقة مع أسباب نزوله ومناسبته، ومرحلة النزول، والمكان (مكة أو المدينة) لذلك فالسياق ومعرفته، من معرفة مقاصد الخطاب القرآني.

Summary:

The conteste or perspective are the most important elements of l'inguistics discouse, rhetoric and genealogical Scientiste treated (perspective) Under what there are colled (taking into account the addressee's to appropriate case), and each contesct is a classification differ, and speaker should respect it.

But the modern researchers developed that concept to chat is more wide , in other word they ameliorate a linguistic contescte. That is, cultural, emotional , and Social one, and it is the general frame work that cover the time and place of speack, and indentity of talker and addresse, and the relation between them, in addition to the circunstance arsund them, the contesct or prespective play a bi grole to understand the aim of quranic discourse.

الكلام أو الخطاب أو النص منتوج لغوي فكري وثقافي، تشاركه وتتفاعل معه أطراف تواصلية أساسية في إطار زماني ومكاني، وفق خلفيات ومرجعيات مختلفة، تحاط به جملة من العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية تساهم في التأثير على دلالة الخطاب ومعناه، كاللغة وظروف المتخاطبين وحالتهم الشخصية والنفسية والاجتماعية والثقافية، فالخطاب يحتاج إلى مرسل ومستقبل له، كما يحتاج إلى لغة مشتركة بينهما، ومقام أو سياق يحدده، لأن المقام مقامات والسياق سياقات، والخطاب ألوان، فما على المرسل إلا اختيار الكلمات المناسبة في مقام وسياق يليق بها، هذه الكلمات التي تحمل معنى خارج السياق وتحمل معاني في سياقات مختلفة والسياق منه ماهو لغوي داخلي يتعلق بالعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية، ومنه ماهو خارجي يتمثل في السياق الثقافي والاجتماعي والعاطفي.

و العملية التواصلية التي تدور في بيئة لغوية وغير لغوية، داخلية وخارجية، هي التي تحدد نوع الخطاب المستعمل من طرف المرسل، من خلال مراعاة مقتضى الحال، ولكل مقام مقال، وهو المفهوم الذي اهتمت به كثيرا البلاغة العربية القديمة، ومهدت به الطريق إلى الدراسات اللغوية والنقدية، والبلاغة الجديدة(التداولية)، بحيث أصبح السياق من أهم عناصر التواصل، وبدونه لا نصل إلى المعنى الحقيقي للخطاب.

لكل من المتكلم والمتلقي اعتقادات وأعراف مشتركة بينهم، تجعل الخطاب ينبع من خلال هذا الاعتقاد والمرجعية المعرفية التي يتم التواصل بها، وهذا الإطار الثقافي

يمثل للمتخاطبين مرجعية التفاهم والتواصل[1] والسياق اللغوي والثقافي هو المعين على فهم عبارات مرتبطة بالحياة الاجتماعية، وبثقافة المجتمع الدينية والسياسية....

يحتل المقام أو السياق دورا مهما في الأقوال والأفعال التي لا يستقيم فهم مقاصد الخطاب إلا بها ولا تتحد معاني الكلمات والخطابات بدون تكييف مع المقام(السياق)، والخطاب مقيد دائما بالسياق، لأنه يساعد في فهم مضمونه، فقد صار من اللازم في عمليات التفسير والتأويل من ضبط السياق كلاميا ومقاميا، وذلك بتحديد ملابساته وأطرافه ومفرداته من السوابق واللواحق التي تكون في جملتها خادمة للمعنى والإفادة والمقاصد، وبدون السياق تبقى الوحدة اللغوية تحت معاني واحتمالات كثيرة إذا لم تكن مربوطة بقرينة أو أثر دال، والسياق يحتاج إليه كل مفسر ولغوي في إجراءاته وتطبيقاته نظرا لدور عناصر السياق في إضاءة مضامين الخطاب ورفع غموضه.

يعد المتكلم أو المخاطب أو الباحث من أهم عناصر السياق، باعتبار أن لكل واحد أسلوبه أو طريقته في الكلام، بالنظر إلى الخطاب والمكان والزمان، والظروف المحيطة به المعلنة والخفية، فقد نسمع المتكلم يتكلم بطريقة مباشرة، كما قد لا نسمعه، وفهم الخطاب في هذه الحالة يختلف، فالأول قد تساعدنا فيه العوامل الخارجية والإشارات أو المؤشرات في زيادة مستوى فهم الخطاب، أما الحالة الثانية غير مباشرة نراها من خلال المفردات والبناء، الزمان و المكان وغير ذلك، "فمشاهدة المتكلم أثناء الكلام الفعلي تعين على فهم الحدث اللغوي بل التعرف على كل صفات المتكلم، ذلك أن لكل متحدث معجمه الخاص ومفرداته التي يتألق معها..."[2] ، فالمخاطب ما هو

---

(1) -نصر حامد أبو زيد-النص، السلطة، الحقيقة-المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب- ط2- 1997م- ص:98.

(2) -تمام حسان- اللغة العربية: معناها ومبناها- عالم الكتب- ط3- 1998م- ص. 337.

إلا حالة نفسية تحكمه ضوابط وقواعد اجتماعية يجسدها حسب ما يمتلكه من رصيد لغوي ومعرفي، مع حسن اختيارها وتأليفها بالنظر إلى الموقع أو الحال المتواجد فيه، حتى يصل إلى مراعاة المقام لمقتضى الحال.

العنصر الآخر الذي لا يقل أهمية عن المتكلم يتمثل في المتلقي الذي يوجه إليه الخطاب أو الرسالة من المخاطب، وهو الذي يحدد نوع الرسالة، فكلما كان المخاطب مختلفا عن سابقه اختلف الخطاب، لأن الخطاب يختلف حسب اختلاف الموقف الذي يجمع المرسل بالمرسل إليه، "المخاطب عنصر من عناصر المقام، وهو اقتضاء الموقف، وقد أولاه البلاغيون عناية كبيرة...مما أسموه مراعاة حال المخاطب وهو المستمع الذي عناه العاني بما صدر عنه من مقام..."[1] ، وقد كانت له عناية أكثر في العصر الحديث، بعد الانتقال من الاهتمام بالمبدع والنص إلى الاهتمام بالقارئ والمتلقي، وظهور نظرية القراءة والتلقي.

ثالث عناصر السياق أو المقلم هو(موضوع المخاطب) الموجه للمخاطب، يكون مناسبا وملائما للمقام الذي ورد فيه، "تختلف الأنماط اللغوية باختلاف الموضوعات التي تدور حولها ويعبر عنها الحديث...فمجال الحديث يتصل بالآثار المترتبة على الدور الذي يؤديه المتكلم"[2]، و يعكس موضوع الخطاب المقام أو الوضعية أو الحال الموجود فيها كل من المرسل والمرسل إليه، سواء تعلق الأمر بجانبه الشكلي أو

---

(1) -عبد المنعم خليل- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين: دراسة لغوية نحوية دلالية- دار الوفاء- الإسكندرية- ط1- 2007م- ص80.

(2) -محمد بدري عبد الجليل- تصور المقام في البلاغة العربية- دار المعرفة الجامعية- دط- 2003م- ص: 36.

المضموني، وهنا يكمن دور المرسل في حسن تعامله مع الموضوع والمقام، وكذا الظروف المحيطة به.

1-المقام لدى البلاغيين:

اهتم علماء البلاغة بالمقام أو مقتضى الحال اهتماما كبيرا، لما يحمله من إفادة في إيصال المعنى وتحقيق غاية التواصل البلاغي، فمعرفة المقام عندهم من شروط فهم العمل التواصلي، فهو يقوم بجمع العملية التواصلية(المتكلم والسامع والرسالة) ويبث فيها روح التناسق(الإيقاعية التواصلية، وهو الذي يضمن النجاح التداولي للخطاب، في مقابل النجاح النحوي الدلالي الذي هو مسؤولية البناء[1]، بل إنه لا يمكننا كما يقول تمام حسان"فهم المعنى الدلالي بمجرد النظر إلى معنى المقال دون اعتبار المقام، وهل يمكن بالمقابل فقط أن نفهم المقصود من عبارة: زيارة الأصدقاء تسعد النفس، إننا لا نعرف من هذه العبارة ما إذا كان الأصدقاء زائرين أم مزورين".[2]

نجد مفهوم المقام عند البلاغيين تحت ما أسموه ب(مراعاة المخاطب) وخاصة من حيث طبقته،[3] فنظروا إليه نظرة سكونية، نمطية، مجردة، ويتضح ذلك في قول أبو هلال العسكري:" وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة والبدوي بكلام البدو،

---

(1) -فان دايك- النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب والتداولي- تر: عبد القادر قينيني- إفريقيا الشرق- المغرب- دط- 2000م-ص: 257.

(2) -تمام حسان- الأصول: دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة-دط-1982م- ص: 339.

(3) -جميل عبد المجيد- البلاغة والاتصال- دار غريب- القاهرة- دط- 2000م- ص: 27.

ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى مالا يعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[1].

أدرك القدامى من علماء البلاغة العربية، ظاهرة السياق من خلال عبارتهم(مقتضى الحال) التي أنتجت مقولتهم(لكل مقام مقال) وكل كلمة مع صاحبتها مقام، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة المقام، كما ألحوا على قيمة دراسة كيفية عمل الكلمات دراسة مفصلة، فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق(بمقتضى الحال) و(المقام)، فنحن أمام مصطلحي(الدال) و(المقام) المرتبطين بالمقام الذي هو النص أو العبارة أو الخطاب، يترددان في النصوص البلاغية، ثم انتقلا في حقلي النحو والنقد، فمن أقدم النصوص البلاغية التي ورد فيها هذان المصطلحان رسالة(بشر بن المعتمر)، وقد جاءت الإشارة إليهما فيها وجيزة ولكنها مكثفة الدلالة، يقول بشر: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"[2]فلا يكون كلام يحمل معنى غير قادر على تحقيق المنفعة والصواب، إذا كان هذا الكلام غير موافق للحال، ويكون مناسبا للمقام، وبالتالي فالمقام الواجب مراعاته هو مقام(السامع) من حيث الطبقة التي ينتمي إليها، لأن المقام طبقات، و لكل طبقة مقالها الخاص بها، وخطاب يخاطب به، يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف

[1] -أبو هلال العسكري- كتاب الصناعتين- تح: علي محمد البداوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- مصر- ط1- 1952م.

[2] -الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر- البيان والتبيين- تح: عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي- مصر، ومكتبة المثنى: بغداد- ط2- 1960م.

أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1]، ومن هنا يتضح لنا أن الجاحظ قابل بين الحال والمقام، وطبيعة المقابلة تقتضي طرفين مختلفين فالحال غير المقام، ومن جهة أخرى ربط بين الطبقة والكلام عند معالجة فكرتي الحال والمقام، فالكلام يرتبط بطبقات السامع، أي مقامه الاجتماعي و"كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات"[2]، كما يرتبط بحاله وقت تلقيه الكلام، فلا بد أن يراعي المتكلم هذا المقام الاجتماعي، بالإضافة إلى مراعاة حال سامعه، فيأتي بالمعنى في ما يليق بهما وإيراد ما يقبل عليه، وتجنيبه ما يكرهه وينكره، ومالا يحتمله قلبه، ولا يسعه صدره، ولا يليق به قبوله وهذا ما قصده الجاحظ بأقدار المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات، وأقدار المقامات، يقول أبو هلال العسكري: "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام، وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال"[3]، فطبقة السامعين تحدد المعاني والألفاظ التي يستخدمها المتكلم، "فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى مالا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"[4]، جعل بلغاء العربية مقام الملوك والسادة مختلفا عن مقام البدو والسوقة والعامة والأعاجم، فمقام البدو يناسبه وحشي الكلام ومقام السوقة يناسبه الكلام السهل، فجعلوا هذا ميزان يوزن به الكلام البليغ، بحيث لا

---

(1) -الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر- البيان والتبيين- ج1- ص:138- 139.

(2) -المرجع نفسه- ص:144.

(3) -أبو هلال العسكري- كتاب الصناعتين- ص:27.

(4) -المرجع نفسه- ص:29.

يخاطب الخاص بكلام عام، ولا العام بكلام خاص، وكلما كان الخطاب موجه لغير مقامه، أصبح في غير موقعه ومعناه.

تجاوز علماء البلاغة بعد ذلك مرحلة الطبقية في الخطاب، إلى نوع الخطاب الموجه إلى السامع، والحال الذي يجمعهما، ففي إطار علم المعاني يرى(السكاكي) أن للكلام مقامات، إذ يقول: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل وكذا مقام الكلام ابتداءا يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى الآخر"[1]، فالمخاطب قبل أن يخاطب السامع ينبغي أن يعلم بالحال الموجود فيه(المقام)، فلا يستطيع مثلا أن يخاطبه بكلام التهنئة وهو في مقام التعزية، فيكون الكلام في غير محله، فيجب مراعاة حال السامع أثناء الكلام، وكثيرا ما كان علماء البلاغة يستعملونه، فلفظ الحال مرادفا للفظ المقام،" والحال في اصطلاح أهل المعاني هو في الأمر الداعي لدى التكلم على وجه الخصوص، أي الداعي إلى أن يعبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصيته، ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم، حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضاها،"[2] فنستطيع أن نطلق على الكلام أنه حسن

[1] -السكاكي أبو يعقوب يوسف- مفتاح العلوم-تح: عبد الحميد هنداوي- دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان- ط1-2000م-ص:256.

[2] -التهاوني محمد علي- موسوعة اصطلاحات الفنون والعلوم-تح: علي دحروج- مكتبة لبنان ناشرون-ط1-1996م-ص:616.

إذا انطبق تركيبه على مقتضى الحال، وإذا كان غير منطبق كلامه مع مقتضى الحال فهو كلام قبيح، فينبغي للمتكلم أن يتمعّن جيدا إلى مقتضى الحال أثناء توجيه خطابه في أحوال مختلفة ومتباينة، فحال المخاطب هو مقامه، يقول (ابن جني) في باب آن المحذوف إذا دلت عليه الدلالة، كان في حكم الملفوظ به:" من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض، ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، ف(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نائب مناب اللفظ"[1].

و جعل علماء البلاغة العربية فكرة المقام في علم المعاني، أين تتجلى قيمته أكثر، لما لهذه الفكرة من دور هام في بروز المعنى وإيضاحه، إذ عرفوه بأنه:" تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من استحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[2].

وقد اهتم علم المعاني بدراسة أنواع الأساليب اللغوية، ومقامات كل منها، كما أنه يعني بالأغراض الفرعية في مقابل الأغراض الأصلية للأساليب العربية(النداء، والأمر والنهي، والاستفهام....) وهي أغراض لا تحددها إلا معرفة المقام التواصلي، والسياق الاجتماعي، ولكن ذلك لا ينبغي أن يتسع مفهوم المقام عند بعضهم ليشمل "مجموعة الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها في

---

[1] -ابن جني أبو الفتح عثمان- الخصائص-تح: محمد علي النجار- دار الهدى بيروت- دط- 1952-ج1-ص:284.

[2] -القزويني الخطيب- الإيضاح في علوم البلاغة-تح: عبد المنعم خفاجي- دار الجيل، بيروت- ط3- ج1- 1993م- ص:57.

ذلك النشاط من خارجه بحيث لا تتحدد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلا في ظل ارتباطه بها"[1].

يرى أبو حامد الغزالي أن المقام وسيلة من وسائل إدراك العلوم، فهو بعدها حصر مدارك العلم في العقليات المحضة، والمحسوسات، والمشاهدات الباطنية، و التجريبات، والمتوترات، والقرائن المقامية[1] يقول موضحا ذلك بمثال:" أنّ مجرد الإخبار يجوز أن تورث العلم، وإن لم يكن فيه إخبار، تشهد الصبي يرتضع مرة بعد مرة، فيحصل لنا علم قطعي بوصول اللبن إلى جوفه، وإن لم نشاهد اللبن في الضرع لأنه مستور، ولا عند خروجه فإنه مستور بالفم، ولكن حركة الصبي في الامتصاص، وحركة حلقة تدل عليه دلالة ما، مع أنّ ذلك قد يحصل من غير وصول اللبن"[2]، فيأخذ المقام معنى الحجة، والبرهان ويصبح من وسائل الإمتاع والإقناع، وقد قالوا قديما، ليس من رأى كمن سمع.

فالمقام الحي يؤدي دورا لا يقل أهمية، وهو توحيده للرؤى، والاهتمامات، وجمعه للثقافات، والمشاعر وإعطاؤه فرصة للتأثر والتأثير وتقريبه الفجوة بين القائمين فيه، يقول أبو هلال العسكري: "وإذا كان القوم في قبيلة واحدة، وفي أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة"[3]، ويؤيد ذلك أن المتلقين للخطاب الواحد، في المقام الواحد تكون فهومهم متقاربة على عكس وأن كل واحد منهم سمعه في مقام مختلف، ولذلك لا نجد للخطاب في زمن إنتاجه إلا

---

[1] -الغزالي أبو حامد محمد- المستصفى من علم الأصول- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان-دط-دت-ج1- ص:27.

[2] -المرجع نفسه- ج1- ص:87.

[3] -أبو هلال العسكري- كتاب الصناعتين- ص:230.

معنى واحدا متداولا، ثم تبدأ التأويلات، والتخريجات كلما انفصل عن المقام الأول، وهذا ما حدث مع الخطاب القرآني، وكل النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية.

2-**المقام أو السياق لدى المحدثين**: ساهمت جهود القدماء من علماء البلاغة والأصول بتوضيح الرؤى جول موضوع المقام أو السياق بالمفهوم الحديث، فكانت لهم الأسبقية في إبراز دوره للوصول إلى المعنى يقول تمام حسان: "إن البلاغيين عند اعترافهم بفكرة المقام يتقدمون ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسيين ومن أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب في الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[1]، لأن المقامات والأحوال تختلف والمقالات تختلف تسير وفقها، وما يطلبه المقام الأول من الأسلوب والخطاب، يختلف عما يطلبه الثاني والثالث، "وإذا قال البلاغيون(مقتضى الحال) فالمعنى هو ما يطلبه أحد الأنماط النوعية للمواقف من رعاية في الكلام، وهكذا يمكن للمرء أن يفكر في (أنواع)، ففي المواقف لكل منها مطالب أسلوبية معينة"،[2] فينظر من جهتهم إلى المقام على أساس أنه كيان يجب مراعاته، دون الاهتمام بما هو خارج عن السياق اللغوي، من حالة نفسية واجتماعية وثقافية ودينية، ما ينبغي أن يكون فيه الكلام أو المقال عدم منافاته للقواعد اللغوية بكل مستوياتها، ومراعاة حال السامع، لأن هذا الأخير هو الذي يحدد نوع المقام الذي سيوجه إليه، "وقد نبه (محمد العمري) إلى أهمية فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية بوصفها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب و إن هم لم يهتموا كثيرا بالدراسة

[1] -تمام حسان- اللغة العربية معناها ومبناها- ص: 337.

[2] -تمام حسان- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة- مجلة فصول- م:07- ع03- أفريل- 1987م- ص:29.

النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي فإنّهم حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين،"[1] فلا خطاب الجاهل في مقام المثقف، أو خطاب الشاب في مقام الكبير سنا وثقافة وتجربة، لأن في المقالات أساليب معبرة ومقاصد هادفة، وأغراض محددة، وكلما خرج المقال عن إطاره أصبح الأسلوب غير معبر، والمقصد منه يتغير وأيضا الغرض، ويمكن الانطلاق من فكرة أن المقال يتحدد وفق المقام، لأنها فكرة تتسم بالدقة والشمول، في ضوء نظرية الإبلاغ الأدبي، واللسانيات النفسانية والاجتماعية، فكل من الاستفهام والإنكار والتوبيخ والتهنئة مقام مختلف، ويختلف عن المقامات الأخرى، وكلها تحتاج إلى مقال يليق بها حتى لا يغير من المعنى شيء، لأن الخروج عن إطارها خروج عن المعنى.

فكلما راعى المنتج للخطاب مقامات الخطاب كان أقوى إلى الإقناع وإلى الإمتاع، وما المقامات "إلا جملة الظروف الحافة بالنص بما جاء في ذلك السامع"، ولا تواصل ممكن إذا كان الخطاب مجرد تراكم لعبارات لغوية لا ينتظمها جامع مقامي، فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حد بعيد المضامين التي تحملها والأغراض التواصلية التي تحققها في طبقات مقامية معينة.[2]

فمفهوم المقام اتسع، بسبب ارتباطه بمجالات مختلفة في الشرق والغرب، مثل تحليل الخطاب والسيميائيات، ونظرية أفعال الكلام، وعلم النص، وعلم التأويل،

---

[1] -محمد العمري- في بلاغة الخطاب الإقناعي- دار الثقافة- الدار البيضاء- ط1- 1986- ص:18.

[2] -حمادي صمود- التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس- منشورات كلية الآداب- منوبة-ط2- 1994م-ص:302.

والبلاغة والتداولية، والملاحظ عند المحدثين أنهم يستعملون لفظة السياق مرادفة للفظة المقام في أكثر الأحيان، رغم أن بعضهم يجعل مصطلح السياق متعلقا بالبناء اللغوي والمقام خاصا بالمؤثرات الواقعية خارج الخطاب، على أن كثير منهم لا يميزون بينهما، كما يستعملون عبارات أخرى للدلالة على المقام، مثل السياق الحال، الواقع المعيش، الإطار التبليغي...كما ميزوا بين السياق الاجتماعي والسياق المقامي، فالأول هو مجموع الشروط الاجتماعية التي تسمح بدراسة العلاقات بين السلوكات الاجتماعية، والسلوك اللغوي، أما السياق المقامي فهو يخص "المعطيات التي يشترك فيها كل من المرسل والمرسل إليه حول المقام الثقافي والنفسي والخبرات والمعارف"[1].

ولقد تعددت تعاريف المقام واختلفت باختلاف المنطلقات النظرية التي يتبناها كل دارس، فيدخل في المقام عند(برنت روبن) اللغة المصاحبة، أو ما وراء اللغة، ومنه: التنهد والنغمة، والدمدمة، وسرعة الكلام، والوقفات، وكلها تساعد على فهم المحتوى(محتوى الرسالة)، إضافة إلى الشفرات غير اللفظية مثل المظهر والحركة واللمس، والمكان والزمان.[2]

يقول(فان دايك):"يتألف السياق البراغماتي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد منهجيا ملائمة الأفعال الكلامية، ومن هذه العوامل المعرفة

---

[1] -الجيلالي دلاش- مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها - ترا محمد يحياتن- ديوان المطبوعات الجامعية- بن عكنون- الجزائر- 1996م- ص: 58.

[2] -برنت روبن- الاتصال والسلوك الإنساني- ترا نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية- جامعة الملك سعود- معهد الدراسات العامة- دط- 1991م- ص:159.

التي يملكها مستعملوا اللغة، ورغباتهم أو إرادتهم والأشياء المفضلة لهم، وآرائهم، وكذلك علاقاتهم الاجتماعية".[1]

فالمقام هو الإطار العام للقول الذي يشمل زمان القول، ومكانه وهوية الباث وهوية المتقبل وعلاقتهما بعضهما ببعض، وكل ما يعرفه أحدهما عن الآخر[2].

كما يعرفه(تمام حسان) بقوله: "فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له إتصال بالمتكلم"[3]،وهو هنا يجعل من المقام العلاقة القائمة بين المتكلم والسامع والكلام، وما يحيط به من فضاء خارجي يساهم في فهم المقاصد وتحديد المعنى.

ونجد(كمال بشر) يسميه ب(المسرح اللغوي) ويعني به الجو الخارجي الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، وتتمثل عناصره الأساسية في شخصية كل من المتكلم، والسامع، والعلاقة بينهما، والمكان وما فيه من شخوص وأشياء[4]، فعناصر المقام تكون منحصرة بين المشاركون في التبليغ، وترقبات المتكلم والمستمع، مساهمة المشاركين في الموضوع، ومكان التفاعل، ومعارفهم اللغوية، والصفات اللغوية وغير اللغوية، والمعايير الاجتماعية، ومقاصد المتكلمين وشخصياتهم وأدوارهم، ويصبح المقام بذلك هو كل المؤثرات خارج النص، التي تشارك في إنتاجه، كما تشارك في

---

(1) -فان دايك- النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- ص:70.

(2) -ألفة يوسف- تعدد المعنى في القرآن- دار سحر للنشر- كلية الآداب- منوبة- تونس- ط1- 2003م- ص:159.

(3) -تمام حسان- الأصول: دراسة إيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: ص: 339.

(4) -كمال بشر- علم اللغة الاجتماعي- دار غريب- القاهرة- مصر-ط3-1997- ص:96.

استقباله وفهمه، بمعنى أن المقام التواصلي فيه جوانب ثلاثة، مقام المتكلم ومقام المتلقي، ومقام مشترك بينهما، وهذه المحاور الثلاثة تعمل بشكل متداخل جدا، في اتجاه واحد.

كما أن المقام بالنسبة للنص أو الخطاب أو الرسالة، ثلاث مراحل، مقام قبل الخطاب، ومقام بعد الخطاب، ومقام أثناء الخطاب، وكل مرحلة منها ضرورية للفهم الجيد للنص، وكلما جهلت مرحلة إلا وكان ذلك على حساب فهم السامع وإدراكه، وهذا الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بالخطاب الشفوي المباشر، بينما في الخطاب المكتوب والمنقول، فإننا نفقد أجزاء من المقام سواء باعتبار الطرفين، أة اعتبار الرسالة، ولا يبقى منه إلا ما حاول السياق اللغوي إثباته، والذي لا يرقى إلى درجة المقام الحي، إذ هو عملية تعويضية، لسد النقص الفاضح الذي يتركه فقد المقام التواصلي، ولذلك نجد في النصوص الأدبية خاصة، رغبة خفية في إحياء المقام التواصلي عن طريق السياق اللغوي، وهذا نجده أيضا في التواصل اليومي بين الناس، ويبقى المقام أو السياق أول مبدأ من مبادئ انسجام النص، الذي يشكل من خلال تشابك فضاءات عديدة تؤدي دورا فعالا في تأويل النص كالمتكلم والسامع والزمان والمكان[1].

والمقام هو تأشيرة المرور إلى الإمتاع والإقناع، ومن ثم الفعل والتغيير، فقد طبقه الغرب في مناهجهم اللغوية وتحليلاتهم الأدبية، فحصلوا على نتائج في هذا المجال، أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي ووضعت مقاييس جديدة لشرح الكلمات وفهمها وقدمت وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات فإضافة إلى ما قدمه العرب

(1) -محمد خطابي- لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- ط1- 1991م-ص:52.

قديما في هذا المجال، يمكن الاستفادة أيضا بالمناهج الغربية وتطبيقها في المناهج اللغوية والبلاغية والنحوية والأدبية والنقدية، حتى يوفر معايير ومقاييس نستطيع الحكم بها على النتائج الحقيقية حكما صحيحا، من خلال ماهو عربي قديم، وماهو غربي حديث، بحيث سيساهم في بناء تلق جديد ومثمر للخطاب العربي وللثقافة العربية، بمختلف تفرعاتها، وصنع محطة هامة على صعيد القول البلاغي، وبناء مشروع صالح في توجيه وكيفية صياغة خطاب عربي معاصر، لأن علوم الاتصال الجديدة تقتضي ذلك، وعدم مراعاة المحددات المقامية القديمة والحديثة وغيابها يجعلنا في موقف صعب أثناء تواصلنا مع عالمنا الحاضر الذي يتميز بالدقة والسرعة.

3-دور المقام أو السياق في فهم مقاصد الخطاب القرآني:

القرآن الكريم نص ليس كباقي النصوص اللغوية الأخرى، ودراسة قضية من قضايا البلاغة العربية أو البلاغة الجديدة وإبراز دورها في فهم مقاصد القرآن الكريم، يقتضي البحث والتنقيب على كل نقطة لها علاقة مباشرة وغير مباشرة، بالمقام قبل وأثناء وبعد نزول القرآن الكريم، لأن كتاب الله عز وجل نزل بلغة كانت يصنع بها الشعر والنثر والأمثال والحكم والخطب، تتميز بالوضوح والسهولة والإتقان، كما أن القرآن الكريم عندما نزل بلغتهم واجه طائفة مقبلة عليه، وطائفة رفضته وأنكرته، وبعد نزوله تعددت الآراء والمفاهيم والتفاسير والتأويل، مما نجد مقام ثقافي اجتماعي قبل النزول ومقام لغوي وخارجي أثناء النزول، وتفسير وتأويل لآياته بعد النزول.

فيمكن النظر إلى المقام أو السياق القرآني ودوره في إبراز معناه من عدة زوايا، الداخلية منها والخارجية فالداخلية من خلال دراسة تطور الدلالات للكلمات، والعبارات القرآنية في سياقها الداخلي النصي كما يمكن تفسير القرآن بالقرآن، وانسجام بنياته الداخلية من خلال تفسير آية بآية أخرى أو حدث مع حدث آخر،

وفق تتابع للآيات، أو بين السور، التي يبينها أحداث ووقائع تجعلها تخدم وتفسر بعضها البعض، أو نص ينسخ نص آخر،" فالنص(القرآن) يمتاز من بقية النصوص نصوصا متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدم نفسه بوصفه نصا واحدا في إطار السور المتعددة، وإن المعني ليتعدد في بنائه نموذجا بتعدد النصوص المتداخلة في إطار السورة الواحدة، كما أنه على العكس من ذلك، يرتد إلى بؤرة دلالية واحدة في إطار السور المتعددة، هي بؤرة التوحيد"[1]

أما الخارجي فيتمثل في السياق اللغوي والثقافي والاجتماعي لعصر القرآن ونزوله، من خلال المرجعيات الثقافية والدينية والاجتماعية أو السياسية للعرب قبل الإسلام، وأثناء مرحلة النزول التي استمرت أكثر من عشرين عاما في مكة والمدينة.

نزل القرآن الكريم بمقاصد تتفاعل مع هذا السياق الخارجي، فهو عبارة عن وصل بينه وبين سياق الثقافة العربية بمكوناتها المتعددة، أي بين لحظة نزوله وما زامنها من مرجعيات ثقافية ولغوية، فنجده يتميز بصلته مع عمق وجذور الثقافة العربية.

هذا القرآن الذي جاء كنص بديل لما كان سائدا عند العرب، جاء لقطع بعض الحقائق والعادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة قبل الإسلام، ويكون مرجعا ثقافيا أصيلا مهيمنا على المرجعيات والأفكار الأخرى.

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ألفاظا ومعاني، وأساليب نحوية وبلاغية، ففهم القرآن الكريم وبلوغ مقاصده مشروط بالتمكن من لسان العرب، والسياق الحقيقي لفهم القرآن الكريم وتفسيره وتأويله، هو سياق عصر نزوله، يقول الشاطبي: "إذا

[1]-عياشي منذر- اللسانيات والدلالة الكلمة - مركز الإنماء الحضاري- حلب- ط1- 1996م- ص:97.

قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي لا عجمة فيه فبمعنى أنه نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة، وأساليب معانيها"،[1] ويقول في موضح آخر: "فلابد في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على مالا تعرفه، وهذا جار في المعاني والألفاظ"[2].

فلا يمكن أن تتوسع دلالات القرآن الكريم خارج الدلالات الممكنة لمعهود العرب من لسانهم زمن النزول، لأن اللغة البشرية تتغير وتتطور دلالتها ومعانيها بتغير الزمان والمكان، وهذا النوع من التفسير والتأويل لا نجدها إلا عند الأوائل من المفسرين.

فرغم كون القرآن الكريم دائم التجدد في معانيه ودلالته، وإن كانت هذه الدلالات غير ما عرف في عصر نزول القرآن الكريم، إلا أن السياق اللغوي العام يقع في دائرة تلك الفترة من لسان العرب ابتداء أي لغة عرب عصر التخاطب الأول، وإذا كان تجاوز فيكون بما لا ينقضه، فأهمية السياق اللغوي لعصر النزول يكتسب أهمية كبرى متى كان مقصد الخطاب، تكليفا، موجه لمخاطب محدد قصد أمره أو نهيه أو توبيخه وتحذيره...إضافة إلى ذلك فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش وثقافتهم، مما أهله ليكونوا على قدر التخاطب الإلهي، فأنزل القرأن فيهم وإليهم، بحيث خاطبهم القرآن بشتى ألوان الخطاب تصعيدا وتهديدا، ووعيدا، وجدالا، وبيانا، ووعدا وتنديدا، وفي

[1] -الشاطبي أبو اسحاق إبراهيم بن موسى- الموافقات في أصول الشريعة- تح- عبد الله دراز- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- دط، دت:ص: 43.

[2] -المرجع نفسه- ص:53.

فترة قبل الإسلام كانت العرب تتميز بنوع من الثقافة والفكر والمعتقدات، وخير دليل على ذلك لغتهم التي بلغت مبلغ الإتقان والاتساع والغنى، فأصبحت من أحسن اللغات الإنسانية، سواءا في زمن نزول القرآن الكريم، أم بعده، مما جعل السياق المعرفي للنص القرآني يأتي بسياق علوم العرب ومعارفهم زمن التنزيل، فرغم كونه يتميز بالإعجاز من كل الجوانب اللغوية والعلمية، إلا أنه يتميز بالبساطة والسهولة، فهو دين يسر لا دين عسر، وهذا واضح من خلال اللغة السهلة الموجهة لتلك الأمة الأمية، على حسب مقامهم، وفئاتهم وأعمارهم باعتبار دين لعامة الناس، حتى يتمكن كل واحد منهم من فهمك معانيه ومقاصده، بالنظر على الأفكار الجديدة التي جاء بها خصيصا لهذا الفئة من الناس، التي سارعت بدورها إلى فهم خبايا هذا الكتاب الجديد، لما يحمله من أبعاد إنسانية وأخلاقية، مما جعله كتاب جميع المقامات والسياقات في مختلف الأوقات.

يمكن البحث عن السياق الخارجي عبر أسباب النزول القرآني في مكة والمدينة، ففي مكة نجد القرآن الكريم مر بمرحلة الدعوة السرية ثم الجهرية، فخاطب من آمن من قريش وهم القلة، ومن كفر من قريش وهم الكثرة، أما في المدينة، تميزت الفترة بوجود مخاطب جديد، وهم أهل الكتاب، اليهود أولا والنصارى ثانيا، إضافة إلى بداية التحول نحو الدولة، وانتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، ما يترتب من وراء ذلك على سياقات تختلف باختلاف الطورين، التي كانت مؤثرة على تشكيل الخطاب القرآني لذلك كان ترتيب آيات القرآن حسب النزول، ومعرفة ترتيب الآيات حسب النزول وصيرورتها التعاقبية له أثر كبير في إدراك ناسخ القرآن من منسوخه، وأيضا

الهدف من الترتيب حسب النزول هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية.[1]

فالقرآن الكريم نزل منجما لتثبيت فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا"[2] والحكمة فيه كما يقول الزمخشري في الكشاف:" أن نقوي بتفرقته فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم شيئا بعد الشيء، و جزءا عقيب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال(موسى وداود وعيسى)عليهم السلام، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين، أيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولأن يعظه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقا."[3]

فمسار الدعوة في كل من مكة والمدينة مر بسياقات مختلفة، نتجت عنه خطابات متنوعة، فنجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب مرة بالتهدئة، ومرة بالتثبيت، بل واللوم والعتاب، وهذه كلها تقلبات في الخطاب، وتلونات، غرضها مراعاة أحوال المخاطب، فتحولات الخطاب القرآني نابع من السياقات المتنوعة لمقاصد الآيات.

---

(1) -الجابري محمد عابد الجابري- مدخل إلى القرآن الكريم- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط2- 2007م-ص:245.

(2)- سورة الفرقان- الآية:32.

(3) -الزمخشري محمود بن عمر- الكشاف عن حقائق عوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- دار الكتاب العربي- بيروت- ج3- ط3- 1987م- ص:212.

فكلما كان غرض الآيات قصديا خارجا عن اللفظ، كانت له أهمية أكبر في كسب القيمة المعرفية لسياقات التخاطب الحقيقية، من خلال الاعتماد على أقصى درجات التعاون المرتبطة بالإحالة إلى عالم التخاطب الأول الخارجي، وكلما كان النص مقصودا به ذاته، ونجده لا يرتبط إلا بالسياق اللغوي أو الثقافي العام، تقل قيمته المعرفية لسياقات التخاطب الحقيقية. يقول(نصر حامد أبو زيد):"إن أسباب ليست سوى السياق الاجتماعي للنصوص، وهذه الأسباب كما يمكن الوصول إليها من خارج النص يمكن الوصول إليها من داخل النص، سواء في بنيته الخاصة أم في علاقته بالأجزاء من النص العام، وقد كانت معضلة القدماء أنهم لم يجدوا وسيلة للوصول إلى(أسباب النزول) إلا استنادا إلى الواقع الخارجي والترجيح بين المرويات، ولم ينتبهوا إلى أن في النص دائما دوالا يمكن أن يكشف تحليلها عن ما هو خارج النص، ومن ثم يمكن اكتشاف (أسباب النزول) من داخل النص، كما يمكن اكتشاف دلالة النص بمعرفة سياقه الخارجي".[1]

لفهم الخطاب القرآني عموما، والخطاب الموجه لفئات معينة خصوصا، لا يكفي أن نقف عند المستوى الداخلي للغة فحسب، من خلال بنيته الصرفية والدلالية والنحوية والمعجمية والبلاغية، وإنما تشاركه عوامل أخرى خارجية تعمل على كشف دلالته ومقاصده، كمعرفة زمان ومكان الخطاب، من خلال أسباب نزوله، أي معرفة حال ومقام الخطاب، فكل خطاب له زمان ومكان صياغته، مما يؤثر تأثيرا مباشرا في كيفية معينة، وزمان ومكان محددين، مخاطبا بصفة العموم أو الخصوص نوعا من

[1] -نصر حامد أبو زيد- مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- بيروت- ط2- 1998م ص: 111.

المتلقين، مما جعله ينزل متفرقا، وهو سبب أساسي ليكون المقام من أهم العوامل التي تساعد على فهم مقاصد الخطاب القرآني.

هناك جوانب كثيرة في الخطاب القرآني تشير إلى المقام أو السياق، من خلال النظر إليه من زاوية السياق اللغوي أو لغير لغوي، وقد أشار إليها علماء التفسير والأصول والبلاغة واللسانيات، فمن بين هذه الجوانب مثلا نجد مكان نزول القرآن الكريم(الخطاب المكي والمدني) من جهة، ومن جهة أخرى أسباب نزول الآيات، وهذا يحيلنا إلى بعض الوقائع والأحداث التي كانت سببا في نزول بعض الآيات إن لم تقل أغلبها، لأن المقام قد يكون قبل أو أثناء أو بعد الخطاب، فنجد مقام أثناء الخطاب عندما يكون مباشرة مع أهل الكتاب بصيغة (يا أهل الكتاب...، أو يا أيها الذين أوتوا الكتاب..)، ومقام قبل الخطاب عندما يكون موجه إليهم على لسان أنبيائهم(هارون وموسى وعيسى) عليهم السلام، ومقام بعد الخطاب عندما يكون خطاب عام وشامل لكافة الناس، ويكون(أهل الكتاب) جزء منهم، ويتبعه تفسيرات وتأويلات متنوعة، من أهل الكتاب نفسهم، أو من المفسرين والمؤولين للخطاب.

فمعرفة زمان ومكان وأسباب نزول الآيات، يجعلنا نعود إلى تلك الحادثة أو الواقعة في زمانها ومكانها مما يساعد إلى حد كبير في معرفة نوع المخاطب الموجه إليه هذا الخطاب ومناسبته، هل المقصود ب(أهل الكتاب) اليهود فقط؟ أم النصارى؟ أو اليهود والنصارى معا؟.

ومن ناحية أخرى أهل الكتاب في مكة ليس كأهل الكتاب في المدينة من حيث الاستجابة للدعوة المحمدية، والإنكار لها، فزمن الخطاب يساهم في فهم الخطاب، فهل هو في البدايات الأولى من الدعوة التي عرف فيها أهل الكتاب مسايرة الدعوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أو في الحقبة الأخيرة من الدعوة المدنية أين عرف فيها أهل الكتاب التعنت والإنكار؟، يقول الشاطبي:"إن علم المعاني والبيان- الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إن مداره على

مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع، إذا الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالته، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بالكلام المنقول نفسه، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة، أفهم شيء منه"[1].

كان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام رضوان الله عليهم جميعا الدور الفعال في فهم وحفظ ومعرفة على من نزلت الآيات الكريمة، من خلال مزاملتهم للرسول صلى الله عليه وسلم الدائمة في كل مكان وزمان، منذ الوهلة الأولى من نزول القرآن الكريم مفرقا حسب الوقائع والأحداث، فما أن تنزل آية إلا وعرفوا على من نزلت وسبب نزولها، وقد أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم في من نزلت وأين نزلت"[2] وعرف العلماء سبب النزول بأنه: "ما نزل القرآن متحدث عنه، أو مبين لحكمه أيام وقوعه، كحادثة أو سؤال، أي أن هناك آيات اختص نزولها، بكونه كان عقب أمور معينة، اقتضت وقوعها نزول القرآن فهذه الأمور التي اقتضى وقوعها نزول هذه الآيات تسمى بأسباب النزول.[3] "فمن فوائد معرفة أسباب النزول هو إخراج تلك الوقائع والأحداث التي نزلت فيها الآيات مما يزيد من المعنى أكثر وضوحا، وإزالة الإشكال فيها، ومعرفة الطرف المعني بالخطاب، "فمن فوائد معرفة

---

[1] -الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى- الموافقات في أصول الشريعة- تح/ عبد الله دراز- ج3- ص: 294.

[2] -السيوطي جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر- الإتقان في علوم القرآن- تح/ محمد ابو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية- بيروت- ط1- 2006م- ص: 12.

[3] -عبد الوهاب لطف الديلمي- أسباب النزول- مجلة كلية الآداب- جامعة صنعاء- ع17- 1994- ص: 447.

أسباب النزول والوقوف على المعنى"،[1] كما أورده الزركشي، غلا أن الارتباط على سبب النزول ليس على كل الآيات، فهناك آيات لا يتم فهمها إلا من خلال ملابسات المقام الأول الذي نزل فيه، وهناك آيات غير مرتبطة بسبب النزول.

وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول، وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين.[2] إشارة إلى أن نزول القرآن لأسباب دال على أن القرآن ليس من أساطير الأولين المكتوبة من قبل، فيكون حدوث النزول دليلا على كونه من عند الله، فهي إنزال حي مرتبط بأحوال المخاطبين، وهذا النزول الحي للقرآن يحتاج لإنزاله في التفسير إنزالا حيا، يرى القرآن في واقع تفسيره، كما كان في واقع تنزيله.

خاتمة:

القرآن الكريم نص النصوص، لفهمه فهما دقيقا، ينبغي النظر إليه من زوايا مختلفة، وما المقام والسياق إلا زاوية من هذه الزوايا، التي لا تقل أهمية في فهم مقاصد الخطاب القرآني، شكلا ومضمونا، أي النظم بصورته الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، من ناحيته الشكلية، والسياق الثقافي والاجتماعي من ناحية المضمون، لأن القرآن الكريم نزل متفرقا بلغة ميزت تلك الفترة، في وضع اجتماعي وعقائدي مختلف مع مرور الزمن بين مكة والمدينة، واختلاف أطراف التفاعل والمشاركين مما يستدعي معرفة كل ما يحيط بالخطاب من قالب لغوي، وظروف مختلفة، وتأثيرات متنوعة، حتى نصل إلى المقصد الحقيقي للخطاب ومعناه.

---

[1] -الزركشي- بدر الدين محمد بن عبد الله- البرهان في علوم القرآن- تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة- بيروت- ج1- ط1- 1972- ص: 22.

[2] -الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير- دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس ج1- 1997م- ص: 47.